موارد ابن إياس في كتابه بدائع الزهور عن الصراع المملوكي العثماني (٩٢٢هـ - ٩٢٣هـ / ١٥١٦-١٥١٧م)

شادية حسن أحمد العدوان*

ملخص

يؤرّخ هذا البحث للتاريخ من خلال دراسة موارد ابن إياس في كتاب بدائع الزهور عن الصراع المملوكي العثماني، وهو مؤرخ معاصر لذلك الصراع. وبذا، فإن هذه الدراسة تعدّ محاولة لتبيان نوعية مصادره التي اعتمد عليها، وقيمتها في دراسة ذلك الصراع، وطريقته في اختيار موارده، التي تبين أنها اعتمدت على أربعة مستويات من الموارد: التقارير الرسمية الصادرة عن الدولة المملوكية، والتقارير التي قدمها مشاركون في الصراع، والروايات الشفوية التي قدمها المشاركون في الصراع، ومشاهدات ابن إياس للأحداث، فضلاً عن اعتمادها على الروايات الشفوية التي تناقلها أهل القاهرة، والشعر الذي أرخ للأحداث.

الكلمات الدالة: تأريخ التأريخ، الموارد، ابن إياس، مماليك، عثمانيون.

المقدمة

إن محاولة دراسة تأريخ التاريخ وفهمه مهمّة جداً للدراسات التاريخية كونها مفتاح التعامل مع المصادر التاريخية الأولى، ومدى صدقيتها، وحياديتها، وقيمة المعلومات التي تقدمها تلك المصادر، بناءً على مواردها التي استقت منها معلوماتها، إن جزءًا مهماً من دراسة تأريخ التأريخ هو بدراسة الموارد التي اعتمدت عليها المصادر في نقل رؤيتها لحدث ما، إضافة إلى أن دراسة الموارد تبين لنا قيمة المصادر المختلفة ومدى أهميتها وفرادة معلوماتها في مقابل المصادر الأخرى.

وفي هذا السياق، جاءت هذه الدراسة لموارد ابن إياس عن الصراع المملوكي العثماني في الفترة من ٩٢٢-٩٢٣هـ ./ ١٥١٦-١٥١٧م التي انتهت بسقوط الدولة المملوكية، وخضوع مناطقها للدولة العثمانية، ولمّا كان ابن إياس أحد مؤرخين قلائل جداً في مصر وبلاد الشام – حيث جرت الأحداث – عاصروا هذا الصراع وكتبوا عنه، كان لا بد من دراسة موارده لتبيان قيمتها في هذا الموضوع المهم. لذا، ستعمد الدراسة بدايةً إلى التعريف بالمؤلف ومصنفه.

أولاً- التعريف بالمؤلف:

ولد أبو البركات، محمد بن أحمد بن إياس الناصري في القاهرة في يوم السبت السادس من

---

* كلية عمان الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية. تاريخ استلام البحث ٢٠١١/١١/٢٣، وتاريخ قبوله للنشر ٢٠١٢/٥/١٠.

ربيع الآخر سنة ٨٥٢هـ ./ ١٤٤٨م. كما نصَّ ابن إياس على ذلك في كتابه بدائع الزهور[١] لأسرة شركسية مملوكية عمل أفرادها في الدولة المملوكية، ويعود أصلها إلى الجد إياس أحد مماليك السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤ – ٨٠١هـ . / ١٣٨٢ – ١٣٩٩م) مؤسس الدولة المملوكية الثانية، وعمل إياس دواداراً[٢] في دولة السلطان الناصر فرج بن برقوق (٨٠١ – ٨١٥هـ . / ١٣٩٩ – ١٤١٢م)[٣]، ووصفه حفيده محمد، مؤلف كتاب بدائع الزهور، بأنه: "كان ديّناً خيّراً، ريّساً معظماً عند الناس، وعاش نحواً من خمس وثمانين سنة"[٤]. وتوفي سنة ٨٥٣هـ ./ ١٤٤٩م[٥].

أما والده أحمد، فهو أيضاً من مماليك الظاهر برقوق، وعمل دواداراً ثانياً إلى جانب والده إياس في عهد الناصر فرج بن برقوق، ومات في سنة ٩٠٨هـ . / ١٥٠٣م عن عمر يزيد على الرابعة والثمانين، وكان على حد وصف ولده له": كثير العشرة للأمراء وأرباب الدولة، ومن مشاهير أبناء الناس"[٦].

وكان لأحمد خمسة وعشرون ابناً وبنتاً ماتوا جميعاً في حياة أبيهم[٧] ما خلا ثلاثة عاشوا بعده، وهم: محمد مصنف كتاب بدائع الزهور، والجمالي يوسف، وبنت لم يذكر محمد اسمها، وكان يوسف يعمل زردكاشا (هندسة المدفعية) في دولة السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ – ٩٢٢هـ ./١٥٠١ – ١٥١٦م)[٨].

وهكذا نجد أن محمد بن أحمد بن إياس ولد ونشأ في أسرة شركسية مملوكية عمل أفرادها في مناصب الدولة الإدارية والعسكرية، لذلك كانت ميسورة الحال، ولا بد أنها اعتنت بتربية ابنها محمد، والراجح أنها ركزت على تربيته بطريقة تؤهله لتولي مهمات في الدولة المملوكية، ولكن ليس لدينا أي إشارة إلى ذلك في مصنفات ابن إياس، سوى إشارته إلى تتلمذه في التاريخ على المؤرخ السيوطي (ت ٩١١هـ . /١٥٠٦م) والمؤرخ عبد الباسط بن خليل الحنفي (ت

---

(١) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت٩٣٠هـ ./١٥٢٣م) ، بدائع الزهورفي وقائع الدهور، (٥ج) ، النشرات الإسلامه فارانز ستاتينز ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ج٢، ص٢٦٣.

(٢) الدوادار: هو الذي يبلغ الرسائل وعامة الأمور عن السلطان، ويقدّم القصص إليه، المشاورة على من يحضر إلى الباب، فضلاً عن أنه يقدّم إلى السلطان كل ما تؤخذ عليه العلامة السلطانية من المناشير والتواقيع والكتب.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور: ج٢، ص٢٧٢.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور: ج٢، ص٢٧٢.

(٥) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٧٢.

(٦) المصدر نفسه: ج٤، ص٤٧.

(٧) المصدر نفسه: ج٤، ص٤٧.

(٨) المصدر نفسه: ج٤، ص٢٠٥.

٩٢٠هـ ./١٥١٤م)[٩].

أما عن حياة محمد بن أحمد بن إياس، ففي ضوء عدم وجود أي ترجمة له في المصادر المعاصرة أو اللاحقة له، فإننا سنركز على تلمس ملامحها من خلال كتابه بدائع الزهور الذي يبين استعراضه أنه لم يقم بأي عمل في الدولة المملوكية، وإن تمتع بإقطاع يكفيه معيشة حياته كونه أحد أولاد الناس (أبناء المماليك).[١٠]

والملاحظ هنا أن ابن إياس على غير حال معاصريه وسابقيه لم يقم بأي رحلة علمية، بل ويظهر انه لم يغادر القاهرة طوال حياته إلا لأداء فريضة الحج سنة ٨٨٢هـ ./ ١٤٧٧م، وتحدث فيها عن مشاهداته في سفره باختصار شديد تضمن الحديث عن الشدائد التي تعرض لها الحاج المصري، والغلاء، وموت الجمال، ثم ظروف مقتل قاضي المدينة المنورة[١١].

إن هذه الإشارات على نزرها وندرتها هي ما استطعنا رصده عن ابن إياس من خلال كتاب البدائع، التي تؤشر على أنه لم يكن واسع الثقافة بمفهوم عصره؛ إذ لم نجد أي إشارة إلى توسعه في علوم القرآن والحديث والفقه والعقيدة، لذلك يمكن عدّه ممن اعتنوا بالتاريخ واختصوا به فقط من دون العلوم الأخرى.

أما عن مصنفاته، فلم يكن أيضاً ممن توسعوا في التأليف، بل كان محدوداً فيه مقارنة بمؤرخي عصره، وأهم ما صنفه:

١- بدائع الزهور في وقائع الدهور.

٢- جواهر السلوك في أخبار الأمم والملوك، وهو مختصر لكتاب بدائع الزهور، طبع بتحقيق محمد زينهم عزب، الدار الثقافية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٣- نشق الأزهار في عجائب الأقطار.

٤- نزهة الأمم في العجائب والحكم، وهو مطبوع بتحقيق محمد زينهم عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م.

٥- عقود الجمان في وقائع الأزمان، وهو كتاب مختصر لتاريخ مصر.

٦- مرج الزهور في وقائع الدهور، وهو مؤلف شعبي في قصص الأنبياء[١٢].

ثانياً - نسخ كتاب بدائع الزهور وطبعاته:

يوحي عنوان كتاب ابن إياس بأنه مصنف في التاريخ الإسلامي العام على غرار العديد من

---

(٩) المصدر نفسه: ج٣، ص١٤٤ - ١٤٥.

(١٠) ابن إياس، بدائع الزهور: ج٣، ص١٤٤ - ١٤٥.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي / القرن التاسع الهجري، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٤م، ص ٥٣.

المصنفات السابقة له، إلا أن المصنف اقتصره على تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح الإسلامي وحتى سنة ٩٢٨هـ ./١٥٢٢م) مما يجعل العنوان غير دال دلالة جازمة على محتوى الكتاب.

وعنوان الكتاب الملتزم بالسجع يعبر عن ثقافة عصر المصنف المفتونة بالسجع، كما يعبر عن أثر سقوط الدولة المملوكية وما جرى من فوضى عارمة في الدولة في أواخر عهدها، وذلك من خلال استخدامه لـ . (وقائع الدهور).

بدأ ابن إياس بتصنيف كتابه بدائع الزهور في القاهرة في سنة ٩٠١هـ ./١٤٩٦م كما نصَّ على ذلك في كتابه[١٣]، وكما جاء على النسخة المكتوبة بخطِّه التي انتهى من كتابة جزئها الخامس المحفوظ في مكتبة الفاتح بإستانبول برقم ٤٢٠٠ في "يوم الاثنين ثاني شهر شوال من شهور سنة إحدى وتسع مائة"، وكان هدفه من تأليف الكتاب تقديم تأريخ شامل لمصر منذ الفتح الإسلامي وحتى عصره.

استنسخ كتاب بدائع الزهور أكثر من مرة، وتناثرت نسخه في مكتبات عديدة، منها: مُتحف الأوقاف بإستانبول رقم (٢١٤٩ – ٢١٥٤) ومكتبة جامع الفاتح بإستانبول رقم (٤١٩٧ – ٤٢٠٠)، والمكتبة الأهلية بباريس (Arabe686)، ومكتبة المتحف الآسيوي في بلغراد، والمكتبة الأهلية في فيينا، والمتحف البريطاني بلندن، ومكتبة ليدن، ومكتبة الفاتيكان بروما، ومكتبات عاشر أفندي، وجور لولي علي باشا، وداماد إبراهيم باشا في إستانبول، ومكتبة أحمد تيمور باشا في القاهرة، ومكتبة الأزهر، ومكتبة بانكيبور بالهند، ومكتبة كتابخانه دولة علية إيران.[١٤]

أما عن طبعات الكتاب، فقد طبع عدة طبعات، أولها:

١- طبعة بولاق في القاهرة بثلاثة أجزاء سنة ١٣١١هـ ./١٨٩٤م، عالجت الفترات منذ البداية وحتى سنة ٨١٥هـ . ومن ٨١٥-٩٠٦هـ . ومن سنة ٩٢٢- ٩٢٨هـ .، ثم تبين أن هذه الطبعة مختصر ناقص ويشوبه العديد من الأخطاء التي شوهت الكتاب.

٢- طبعة كاله: نشرها في سنة ١٩٣١م، المستشرق الألماني باول كاله بمعونة محمد مصطفى والمستشرق سوبرنهايم عن جمعية المستشرقين الألمان في إستانبول، الفترة الزمنية ٨٧٢ – ٩٢٨هـ . / ١٤٦٧ – ١٥٢٢م، ثم عاد كاله وزميلاه فنشروا في إستانبول سنة ١٩٣٢ نصاً جديداً لهذا القسم جزموا أنه الجزء الخامس من الكتاب، وفيه العديد من الفروق عن القسم السابق، ثم نشروا نصًّا جديدًا اعتماداً على مخطوطات جديدة للسنوات ٨٧٢ – ٩٠٦هـ ./ في إستانبول سنة ١٩٣٦ ووضعوه بأنه الجزء الثامن من الكتاب.

٣- طبعة جمعية المستشرقين الألمان: حقّق محمد مصطفى الكتاب كاملاً في خمسة أجزاء وستة مجلدات، جاء الجزء الأول في قسمين، ونشرتها جمعية المستشرقين الألمان في القاهرة سنة

(١٣) ابن إياس، بدائع الزهور: ج١، ص٣-٤.

(١٤) شاكر مصطفى، التاريخ والمؤرخون العرب: ج٣، ص١٩٦-١٩٧، حسني عاصي، ابن إياس: ص٥٨-٦٥.

١٩٦٢م وما بعدها، ثم أعادت الهيئة المصرية العامة للكتاب نشرها سنة ١٩٨٤م، وهي أفضل طبعة محققة للكتاب اعتمدت نسخه المعتبرة في مختلف مكتبات العالم.

هذه أهم طبعات الكتاب، إلا أن أهميته وشهرته جعلتا العديد من المكتبات تنشره من قبل مكتبة دار الفكر اللبناني سنة ١٩٩٢م، إلا أن طبعة محمد مصطفى تبقى الطبعة الوحيدة المعتمدة.

ثالثاً – تعريف بمحتويات الكتاب ومصادره:

بدأ ابن إياس بتأليف كتابه في أواخر الدولة المملوكية ٩٠١هـ ./١٤٩٦م، وانتهى منه في سنة ٩٢٨هـ ./١٥٢٢م بعد سقوط الدولة المملوكية ودخول مصر ضمن ولايات الدولة العثمانية، وكتب كتابه للتأريخ لمصر الإسلامية منذ الفتح الإسلامي وحتى عصره مع تمهيد مختصر لفضائلها، ومن ملكها من الملوك قبل الإسلام "رغبة منه في إيجاد تاريخ لمصر به من الفوائد السنية والغرائب المستعذبة ما يصلح سامرة للجليس، وأنيساً للمنفرد الوحيد"(١٥) حسب ما صرح في مقدمة كتابه، إلاَّ أننا يمكن أن نضيف إليه سبباً مهماً وهو محاولة التأريخ لمصر في فترات مجدها بعد زوال أهميتها بانضمامها للدولة العثمانية، والدمار الهائل الذي تعرضت له بسبب الدخول العثماني إليها.

والتزم ابن إياس بما اختطه في مقدمة كتابه من تتبع لأخبار مصر على الترتيب الحولي (السنوات) مؤكداً انه يورد الأخبار اختصاراً، ولكن من غير إخلال بالحوادث، وقسمه إلى خمسة أجزاء بدأها بالحديث عن الآيات القرآنية التي ورد بها ذكر مصر وأخبارها، والأحاديث النبوية وخصوصاً في فضائلها، وأقوال الحكماء والعلماء في مصر، ثم اشتقاق اسم مصر ومعناه، وحدود مصر وجهاتها وعجائبها، ثم أعمال مصر وكورها، والصحابة الذين دخلوها، وأخلاق أهلها، والأشعار التي قيلت فيها، ثم الحديث عمن ملكها قبل الإسلام، ثم فتحها على يد المسلمين، لينطلق بعد ذلك للحديث على أخبارها حسب السنوات، مختصراً في السنوات التي لم يعاصرها مسهباً في السنوات التي عاصرها.

تناول في الجزء الأول الحديث عن مصر وفضائلها واشتقاق اسمها وتاريخها قبل الإسلام، ثم تاريخها الإسلامي على السنوات منذ سنة ٢١هـ ./ وحتى سنة ٨١٥هـ ./ ١٤١٢م). وبسبب ضخامة حجم الجزء الأول، نشره المحقق محمد مصطفى في مجلدين.

أما الجزء الثاني من الكتاب، فتناول تاريخ مصر منذ سنة (٨١٥هـ ./١٤١٢م) وحتى سنة ٨٧٢هـ ./ ١٤٦٨م، وتناول الجزء الثالث الفترة الممتدة من سنة ٨٧٣هـ ./ ١٤٦٩م– ٩٠٦هـ ./ ١٥٠١م، في حين تناول الجزء الرابع السنوات من سنة ٩٠٦هـ ./ ١٥٠١م إلى ٩٢١هـ ./ ١٥١٥م، وخصص الجزء الخامس للسنوات الممتدة من سنة ٩٢٢هـ ./ ١٥١٦م/ ٩٢٨هـ ./ ١٥٢٢م وهي فترة السيطرة العثمانية على مصر، ومن ثَمّ فإن ابن إياس لم يدوّن حوادث سنة

(١٥) ابن إياس، بدائع الزهور: ج١، ص١-٣.

٩٢٩هـ ./ ١٥٢٣م وسنة ٩٣٠هـ ./ ١٥٢٤م وهي السنوات التي شاهدها قبل وفاته، فربما أدركه الموت قبل أن يؤرخ لها.

رابعاً – موارد ابن إياس في كتابه بدائع الزهور:

اعتمد ابن إياس في كتابه على مجموعة من المصادر حددها في مقدمته بنحو سبعة وثلاثين كتاباً[١٦] وهذه الكتب هي:

صحيح مسلم، وكتب ابن عبد الحكم، وكتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية، وتنوير الغبش في فضل السودان والحبش لابن الجوزي، ومروج الذهب والواطواط، ومناهج الفكر للمسعودي، والخطط للمقريزي، ومرأة الزمان لسبط ابن الجوزي، وتاريخ دمشق لأبن عساكر، والذيل على الروضتين لأبي شامة، والكامل لابن الأثير، إضافة إلى مصنفات أمية بن أبي الصلت الأندلسي، وجلال الدين السيوطي، والذهبي، والتيفاشي، وابن حوقل، والقضاعي والكندي، والأدفوى، وابن بسام، وابن فضل الله العمري، وابن خلكان.

وتؤرخ هذه المصادر التي صرح في مقدمة كتابه بالاعتماد عليها للفترة التي لم يعاصرها من تاريخ مصر، أما مادة الصراع المملوكي العثماني – موضوع بحثنا– فقد اعتمد فيها على مجموعة متنوعة من المصادر:

أولاً: الوثائق الرسمية:

تضمنت تلك الوثائق أنواعاً مختلفة، منها:

١ – التقارير الرسمية:

وهي تلك التقارير التي كانت ترد إلى نائب الغيبة في مصر الدوادار الكبير طومان باي من معسكر السلطان قانصوه الغوري في أثناء تحركه إلى بلاد الشام، ثم مجريات الأوضاع في بلاد الشام حتى قبيل معركة مرج دابق، ويبدو أنه اطلع مباشرة على تلك التقارير أو أطلعه على مضمونها بعض أصدقائه من أمراء المماليك، وجاء استخدامه لتلك التقارير بصيغة "وفيه وردت الأخبار"[١٧] و"بلغني من الكتب الواردة بالأخبار"[١٨] "ووردت الأخبار"[١٩] و"جاءت الأخبار من عند السلطان"[٢٠].

وتعلقت تلك التقارير بتفاصيل ومجريات حركة السلطان الغوري من مصر إلى الشام،

---

(١٦) ابن إياس، بدائع الزهور: ج١، ص١-٣.

(١٧) المصدر نفسه، ج٥ ، ص ٦٠.

(١٨) المصدر نفسه، ج٥ ، ص٦٠.

(١٩) المصدر نفسه، ج٥ ، ص٥١.

(٢٠) المصدر نفسه، ج٥ ، ص٤٨.

والحوادث المهمة التي حدثت معه، ومنها: محاولة اغتيال الغوري – قرب خانقاه سرياقوس من قبل حلاق السلطان علم الدين وإجراءاته ضد علم الدين وأقاربه(٢١)، وتتبع حركته منذ خروجه من القاهرة إلى دمشق، والاحتفالات الرسمية التي أقيمت له في المدن التي دخلها، من مثل مدينة: غزة(٢٢)، ودمشق(٢٣)، ثم حلب(٢٤)، وقدم تواريخ دقيقة لدخول السلطان لكل مدينة، وكذلك أخبار الأمراء الذين رافقوه، ومن توفي منهم في أثناء تحرك الجيش المملوكي(٢٥)، وقيام السلطان بترفيعات عسكرية، في أثناء حركته لبعض الأمراء(٢٦).

وقدمت التقارير أيضا معلومات عن المفاوضات بين السلطان الغوري والسلطان سليم العثماني، والخداع الذي مارسه السلطان سليم على الغوري لإقناعه بأنه لا يقصد قتاله من خلال رسل أرسلهم للغوري في حلب يعلمه بأنه مستعد لعقد صلح معه وفقاً لما يريده السلطان الغوري، على شرط وحيد هو أن لا يتدخل في صراعه مع إسماعيل الصفوي حاكم دولة الصفويين في إيران (١٥٠١-١٥٢٤م)، وأنه طلب من السلطان سكراً وحلوى، وأن السلطان أرسل إليه كمية من السكر والحلوى، وإظهاره أنه يريد مهاجمة الصفوي وأن حملته العسكرية موجهة إليه، فرد الغوري بإرسال وفد من قبله إلى سليم لإقرار الأمر بينهما. (٢٧) وهذا التقرير من أهم وثائق الصراع المملوكي والعثماني، ويبين به أسباب هزيمة المماليك، المتمثلة في نجاح سليم العثماني بإقناع المماليك بأن حملته العسكرية الضخمة المعسكرة قرب الحدود المملوكية العثمانية الصفوية، تقصد الصفويين، واقتناع المماليك بهذا الأمر ثم تعرضهم لمفاجأة ضخمة بنزول العثمانيين قرب مرج دابق بعد اعتقاله رسل الغوري وسيطرته على كثير من الحصون والقلاع الحدودية(٢٨). ويبين مدى الاسترخاء الذي أصاب السلطان الغوري والاطمئنان الذي شعر به، وعدم استعداده للمعركة إلاَّ بعد توجه السلطان سليم إلى مرج دابق.

وقد انقطعت تلك التقارير الرسمية من قبل السلطان بعد تقدم الجيش العثماني باتجاه مرج دابق، ولم يطلع ابن إياس على أي تقرير رسمي بعدها، وهو الأمر الذي نجم – في ما أرجح – عن تفاجأ الغوري بالتقدم العثماني ثم اضطراره للاشتباك معهم على عجل في مرج دابق ثم مقتله، فلم يكن لديه في تلك الفترة فسحة من الوقت ليكتب لنائبه على مصر.

---

(٢١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٤٨.

(٢٢) المصدر نفسه، ج٥، ص ٥١.

(٢٣) المصدر نفسه، ج٥، ص ٥٣.

(٢٤) المصدر نفسه، ج٥، ص ٦٠.

(٢٥) المصدر نفسه، ج٥، ص ٥٩، ٦٦.

(٢٦) المصدر نفسه، ج٥، ص ٦٧.

(٢٧) المصدر نفسه، ج٥، ص٦٠-٦١.

(٢٨) المصدر نفسه، ج٥، ص٦٣-٦٤.

٢- التقارير المرفوعة من قبل الأمراء والقادة الموجودين في معسكر السلطان الغوري:

حاول ابن إياس، باعتماده على هذه التقارير، سد النقص في المعلومات عن أوضاع الجيش المملوكي ومعركة مرج دابق، الناجم عن انقطاع التقارير الرسمية الصادرة عن السلطان، ومن تلك التقارير:

أ- تقرير الخليفة المتوكل لوالده يعقوب:

وتضمن الحديث عن خديعة السلطان سليم للسلطان الغوري من خلال المفاوضات، وما جرى على وفد السلطان الغوري إلى العثمانيين من إهانات وتعذيب، وتقدم العثمانيين على نحو مفاجئ باتجاه بلاد الشام، واضطراب أوضاع المماليك أمام هول المفاجأة، ثم تناول إجراءات الغوري لمواجهة العثمانيين، ومحاولاته استدراك المفاجأة ورفع معنويات جنوده، وتطرق فيه أيضاً للأسعار في حلب وارتفاعها بسبب وجود الجيوش المملوكية فيها[٢٩]. وقدمه بصورة "وهذا ما نقل من شرح كتاب أمير المؤمنين الذي أرسله إلى والده أمير المؤمنين يعقوب".[٣٠] وكان هذا التقرير قبل بداية معركة مرج دابق مباشرة، فهو من أهم التقارير عن الاستعدادات للمعركة قبل حدوثها، ويبين فيه من خلال ما تقدم سابقاً جزءاً من أسباب الهزيمة، وهي المتمثلة في المفاجأة والخداع العثماني وسوء تعامل المماليك مع المدن الشامية في أثناء دخولهم إليها.

ب- تقرير الأمير علان الدوادار الثاني عن معركة مرج دابق ومقدماتها:

هذا التقرير هو أحد أهم تقارير معركة مرج دابق على الإطلاق؛ لأنه صدر بعد المعركة وهزيمة المماليك، وكتبه أحد كبار أمراء المماليك، وأرسله لنائب السلطان في مصر لإخباره بما حدث، وليقوم باتخاذ الإجراءات المناسبة لاستدراك أمر هزيمة مرج دابق، وهو الأمير الذي بقي مخلصاً للدولة المملوكية ولطومان باي حتى مقتله سنة ٩٢٣هـ /١٥١٧م في أثناء معارك طومان باي مع العثمانيين[٣١]، فهو على درجة عالية من الأهمية بسبب مصدره، وهو عسكري خبير وحَضَرَ المعركة، ثم لأنه يقدمه إلى نائب السلطان في مصر ليستعد لمواجهة العثمانيين دفاعاً عن مصر أولاً ولاستعادة بلاد الشام منهم ثانياً، وبذا فإنه يصعب الشك في محتوياته.

وأورد ابن إياس التقرير بعد تقديمه للإشاعات التي انتشرت في القاهرة عن المعركة ونتائجها، فقال: "ثم حضر كتاب على يد ساع مطرّد من عند الأمير علان الدوادار الثاني أحد الأمراء المقدمين، فذكر" [٣٢] وتضمن التقرير انطلاء خديعة العثمانيين على السلطان الغوري واقتناعه بأن

---

(٢٩) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٦١-٦٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ج٥، ص٦٤.

(٣١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥.

(٣٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٦٨.

السلطان سليم لا يريد حربه حتى تيقن من الأمراء عند قدوم الأمير مغلباي رسوله للسلطان سليماً، وهو في حال سيئة من معاملة سليم له، وأخبره أن السلطان سليم رفض الصلح وبدأ تحركه تجاه بلاد الشام، وأنه قال لمغلباي: قل لأستاذك أن يلاقيني في مرج دابق، وإجراءات السلطان استعداداً للمعركة، ونزوله في مرج دابق، وتفاجأه بنزول السلطان سليم مقابله في مرج دابق في نفس يوم نزوله، وتفاصيل المعركة وانتصار المماليك بداية على القوات العثمانية، ثم رفض المماليك القرانصة الاستمرار في القتال لوصول أخبار إليهم برفض السلطان إدخال مماليكه الجلبان إلى ميدان المعركة إلى جانبهم حفاظاً عليهم، ومقتل الأمير سودون العجمي أتابك العسكر وملك الأمراء سيباى نائب الشام مما أدى إلى هزيمة ميمنة المماليك، وانهزام خاير بك نائب حلب من الميسرة وهربه مما أدى إلى هزيمة الميسرة بسبب خيانته واتفاقه مع العثمانيين، ويبدو أن التقرير كتب بعد انضمام خاير بك رسمياً إلى العثمانيين بعد المعركة، ثم محاولة السلطان جمع قواته الفارة، والتحام قلب الجيش المملوكي مع العثمانيين، وانهزامه من العثمانيين، وطلب الأمراء من الغوري الانسحاب إلا أنه أصيب بشلل نصفي ثم ما لبث أن توفي تأثراً بالهزيمة، وانتشار خبر وفاته مما شجع الجيش العثماني على الهجوم على مركز السلطان الغوري نفسه وتدميره(٣٣)، ثم قدم قائمة بأبرز الأمراء الذين قتلوا في معركة مرج دابق والذين أسروا، وأكد هذه القضية بقوله: "فإن لما ورد كتاب الأمير علان... بما وقع من أمر هذه الواقعة وقتل الأمراء، فقام العزاء".(٣٤)

ويبدو أنه اعتمد على تقرير ثانٍ للأمير علان من غير أن يسميه يتضمن أحوال من نجا من الجيش المملوكي وصفة دخولهم لدمشق، ذلك الدخول المأساوي للأمراء وما تعرضوا له من سلب، ووصف الفوضى في دمشق وبلاد الشام بعد هزيمة مرج دابق، وقدمه بصيغة "وفيه وردت الأخبار على يد ساع بأن الأمراء".(٣٥)

٣- تقارير من أمراء مماليك لم يسمهم:

اعتمد ابن إياس على تقارير أخرى جاءت لطومان باي من غير أن يحدد مرسلها، لعل من أبرزها تقريراً جاء من دمشق يخبر بأن أمير عربان حماة ناصر الدين بن حنش اشتبك مع القوات العثمانية قرب دمشق وكبدهم خسائر كبيرة(٣٦).

ومن التقارير أيضا التقرير الذي ورد إلى طومان باي ويحتوي على الحديث عن أعمال الجيش العثماني ضد أهالي غزة من نهب وسلب وقتل في أثناء تقدم الجيش العثماني باتجاه مصر. (٣٧)

(٣٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٦٨-٧٠.

(٣٤) المصدر نفسه، ج٥، ص٧٩.

(٣٥) المصدر نفسه، ج٥، ص٨٤.

(٣٦) المصدر نفسه، ج٥، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣٧) المصدر نفسه، ج٥، ص ١٣٢.

وكذلك تقارير متعلقة بخروج السلطان سليم من غزة باتجاه مصر ووصول عسكره إلى العريش[٣٨] ثم وصول جيوش السلطان سليم إلى مشارف حدود القاهرة.[٣٩] وتبين تلك التقارير ارتباك المماليك وعدم مبادرتهم تجاه وقف التقدم العثماني نحو مصر، وهي صادرة عن السلطات الرسمية المملوكية في المدن، والبلدان ما بين غزة والقاهرة.

٤- المراسيم الرسمية والمطالعات الرسمية:

اعتمد ابن إياس في تغطية بعض الجوانب من تاريخه عن الصراع المملوكي العثماني، وسيطرة العثمانيين على بلاد الشام ومصر، وإسقاط الدولة المملوكية على الأوامر الرسمية (المراسيم) وبعض المطالعات (الرسائل) التي قدمها بعض الأمراء المماليك والعثمانيين لنائب الغيبة ثم السلطان طومان، ومن تلك الأوامر: أوامر الغوري لطومان باي، يوصيه بالرعية، وكف أذى المماليك الجلبان عن الناس، وإطلاق المساجين، وأمره بعدم خروج قافلة الحج إذا لم يضمن سلامة الطريق، وأمره بشنق أي مملوك يعتدى على الناس".[٤٠]

أما المطالعات، فمنها: مطالعة نائب حلب للسلطان الغوري، وهو في معسكره بالقاهرة استعداداً للخروج إلى بلاد الشام، تتضمن احتجازه لرسول السلطان سليم المرسل من قبله للسلطان الغوري، ويخبره بملخص رسالة سليم إليه المتضمنة: أن سليماً لم يستولِ على بلاد علي دولات إلا بإذن الغوري وأنه قتله بإذنه، ويعرض إعادة بلاد علي دولات للغوري إذا أرادها، ويتنصل من منع تجار المماليك من جلب المماليك للدولة المملوكية.[٤١]

واطلع أيضا على رسالة أرسلها ناصر الدين بن حنش أمير عربان حماة إلى طومان باي يعرض فيها على طومان باي إمداده بعساكر من مصر ليقاتل السلطان سليم في بلاد الشام، ويمنعه من دخول دمشق، وعدم رد طومان باي عليه وعدم إنجاده بالقوات المطلوبة[٤٢]، وهي من الرسائل التي أرسلت لطومان باي قبل إحكام سيطرتهم على بلاد الشام، وتبين عدم مبادرة طومان باي للقيام بأي عمل لإشغال العثمانيين عن مصر حتى يكمل استعداده في مصر لمواجهتهم، وتبين بعض أسباب هزيمة طومان باي أمام سليم في مصر، وهي المتمثلة في عدم المبادرة لمواجهة السلطان سليم بل بقي في مصر من غير استعداد حقيقي ومن غير تقدم باتجاه بلاد الشام، مما جعله يصبح صيداً سهلاً لسليم في مصر.

واعتمد أيضا على مطالعة (رسالة) سليم للسلطان طومان باي والمتضمنة الوعد والوعيد

(٣٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ص١٤٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ج٥، ص١٤٤.

(٤٠) المصدر نفسه، ج٥، ص٦٥.

(٤١) المصدر نفسه، ج٥، ص٤٥.

(٤٢) المصدر نفسه، ج٥، ص ١٠٧.

والتهديد، ويعرض فيها إقرار طومان باي بأنه نائب لسليم في مصر ويضرب السكة باسمه، وكذلك الخطبة، ويدفع له خراج مصر مقابل عدم هجومه عليها.(٤٣)

ثانياً: الروايات الشفوية لشهود العيان:

اعتمد ابن إياس في مادته على الكثير من الشهود العيان والإشاعات التي اشتهرت في القاهرة بين الناس، ومن أبرز المصادر الشفوية:

١- رواية محمود بن الشحنة قاضي قضاة الحنفية:

روى عنه ابن إياس بعض الأخبار عن العثمانيين ومصير بعض الفقهاء والخليفة بعد معركة مرج دابق، وكان قد شهد معركة مرج دابق وهرب بعدها، وأخبره أن سليماً ملك ثلاث عشرة قلعة، وملك من الفرات إلى حلب، وأن الخليفة، والقضاة الثلاثة في أسر سليم، وأن إبراهيم السمرقندي ويونس العادلي والعجمي الشنقشي أخِصَّاء السلطان الغوري تقربوا لسليم وأصبحوا في خدمته.(٤٤)

٢- الناصري محمد بن يلباي حاجب ميسرة دمشق:

اعتمد على رواياته بعد دخوله إلى مصر هارباً من الجيش العثماني، التي أكد فيها استيلاء السلطان سليم على دمشق وقلعتها وقتله الأمراء فيها.(٤٥)

٣- القاضي عبد الكريم بن الجيعان:

أحد القضاة الذين كانوا في أسر السلطان سليم، ففر من الأسر، وهرب إلى القاهرة، وأبلغ أن أوضاع العثمانيين سيئة في بلاد الشام، وأن أمير عربان حماة ناصر الدين بن حنش ضايقهم ويشن عليهم الغارات، إلا أنه أكد استيلاء السلطان سليم على بلاد الشام وخصوصا دمشق، وطرابلس، وحماة، وصفد، وحمص، وحلب.(٤٦)

٤- عبد البر بن محاسن كاتب خزانة الأمير سودون أتابك عسكر الغوري:

اعتمد عليه في نقل صورة عن عظمة حكم سليم العثماني وامتداده، وأعماله في تحصين دمشق بعد سيطرته عليها، وفتْك عسكره بأهلها وتجاهرهم بأنواع المعاصي والفسوق، وأنهم لا يصومون في شهر رمضان ويشربون فيه الخمر والبوزة ويستعملون فيه الحشيش والشخيب ويفعلون

(٤٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٢٤-١٢٥.

(٤٤) المصدر نفسه، ج٥، ص٨٤.

(٤٥) المصدر نفسه، ج٥، ص١١١.

(٤٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١١٧.

الفاحشة بالصبيان، وأن ابن عثمان لا يصلي صلاة الجمعة إلاّ قليلا.[٤٧] وهي رواية تمثل أول وصف لأخلاقيات الجنود العثمانيين من خلال شاهد عيان اختلط بهم، وهرب منهم بعد استيلائهم على دمشق بمدّة.

٥- دوادار خاير بك نائب حلب:

قدم معلومات عن قيام السلطان سليم بقيادة عساكره نحو غزة[٤٨].

وأورد ابن إياس إضافة إلى ذلك العديد من الروايات الشفوية التي لم يوضح أصحابها، فعن صفة السلطان سليم الذي لم يشاهده ابن إياس اعتمد على أحد الفارين من بلاد الشام ممن شاهده، فقال: "أخبرني من رأى سليماً"[٤٩]، ثم روى صفته عن أحد المصريين الذين شاهدوه في مصر وجاء بصفات فيها اختلاف عن الوصف الأول، وقدمه بصيغة "وقيل" وهو الأمر الذي يؤكد أنه لازم بيته بعد دخول العثمانيين إلى مصر، وأنه لم يثق كثيراً براويه المصري[٥٠]، وكذلك أورد بعض الروايات بصيغة "أخبرني من أثق به"[٥١]، وروى الكثير من الروايات بصيغة. قال، ويقال، وقيل"[٥٢] وكلها تتحدث عن أوضاع مصر أو بلاد الشام في أثناء الصراع، أو تتحدث عن معارك العثمانيين مع المماليك.

ثالثاً - مشاهداته:

لم يورد ابن إياس إشارات قاطعة لمشاهداته الشخصية، إلاّ أننا نستطيع أن نقول إنّ الكثير من رواياته هي من مشاهداته الخاصة، وإن لم يصرح بذلك، وهذا أمر لا مرية فيه؛ لأن الحوادث التي جرت في القاهرة حيث سكنه وإقامته، وخصوصاً المعارك بين طومان باي والسلطان سليم وإجراءات السلطان طومان باي ثم إجراءات العثمانيين وتصرفاتهم كانت علنية بحيث لا يمكن أن لا يكون شاهداً جزءاً كبيراً منها، وشكلت تلك المادة جزءاً كبيرا مما أرخه للسنوات ٩٢٢-٩٢٣هـ ./ ١٥١٦-١٥١٧م، منها: عمليات النهب التي قام بها الجيش العثماني، وكذلك أعمال الزعران في أحياء القاهرة[٥٣]، وحديثه عن خطبة يوم الجمعة [٥٤] آخر يوم في سنة ٩٢٢هـ ./

(٤٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٢٣-١٢٤.

(٤٨) المصدر نفسه، ج٥، ص١١٩.

(٤٩) المصدر نفسه، ج٥، ص١٧٤.

(٥٠) المصدر نفسه، ج٥، ص١٥٠.

(٥١) المصدر نفسه، ج٥، ص١٥٦.

(٥٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٤٤، ٤٥، ٤٦، ٧٠، ٧٤.

(٥٣) المصدر نفسه، ج٥، ص١٤٦-١٤٧.

(٥٤) المصدر نفسه، ج٥، ص١٥٥.

١٥١٧م وعدم ذكر الخطباء لاسم أي سلطان[٥٥]، ثم الخطبة باسم طومان باي في الجمعة التالية يوم السابع من محرم سنة ٩٢٣هـ ./ ١٥١٧م، وكذا الحديث عن معارك طومان باي مع العثمانيين بعد هزيمة الريدانية التي شملت العديد من أحياء القاهرة[٥٦]، وكذلك ما قدمه من وصف لخروج الغوري بجيشه إلى بلاد الشام لمواجهة العثمانيين، وكان ذلك الخروج استعراضياً وعلنياً، وشاهده معظم أهالي القاهرة، والراجح أنَّ ممن شاهدوه ابن إياس.

رابعاً- الأخبار التي تداولها سكان القاهرة:

اعتمد ابن إياس في ما اعتمد عليه من مصادر على الأخبار التي تداولها العامة في القاهرة من أخبار عن تطور الصراع المملوكي العثماني، وتصرفات العثمانيين بعد سيطرتهم على الشام ومصر مع السكان والأمراء والدولة والأملاك، وقدم تلك الأساليب بطرائق متعددة، لعل أبرزها قوله: أشيع[٥٧]، وأيضا نقلها بصيغة "واستفاض بين الناس"[٥٨] "وقد اشيع عن ابن عثمان هذه الأخبار الشنيعة[٥٩] "وهكذا أشيع القول بتغريقهم"[٦٠].

خامساً- الشعر:

اعتمد ابن إياس على العديد من المقطوعات الشعرية التي قالها الشعراء في هذه الوقائع، التي تمثل رأيهم لما يحدث في مصر والشام، ووصفهم له في أثناء الصراع المملوكي العثماني، وأكثر من الاعتماد على أشعار بدر الدين الزيتوني. [٦١] كذلك على أشعارٍ نظمها ابن إياس نفسه.[٦٢]

منهج ابن إياس

اعتمد ابن إياس طريقة الحوليات (التاريخ على السنين) منهجاً لكتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور، ولما كان منهج ابن إياس في مجمل كتابه لا يخص هذه الدراسة بل يتعلق بها منهجه في الفترة مدار البحث، وعليه فقد تناول هذا المنهج حوادثه في كل سنة يبدأ بتحديد أول أيام السنة

(٥٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٤٨.
(٥٦) المصدر نفسه، ج٥، ص١٥٣-١٥٥.
(٥٧) المصدر نفسه، ج٥، ص ٨٢، ١١١، ١١٥، ١١٦، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٤.
(٥٨) المصدر نفسه، ج٥، ص٧٤.
(٥٩) المصدر نفسه، ج٥، ص١٢٤.
(٦٠) المصدر نفسه، ج٥، ص١٣٣.
(٦١) المصدر نفسه، ج٥، ص٩٦-١٠١، ١٤٧.
(٦٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٧٠، ٧١، ٨٨، ١٠٦، ١٠٧، ١١١، ١١٣، ١٧٠.

بالنسبة للأسبوع (وكان مستهل المحرم يوم الاثنين).[٦٣]

ثم يحدد في أول كل سنة من كل جزء جديد الخليفة والسلطان في مصر والقضاة والأمراء المقدمين من أرباب الوظائف وغير أرباب الوظائف، ثم نواب البلاد الشامية وأمراء الطبلخانات، وأرباب الوظائف من أعيان المباشرين المعممين، وأعيان الخدام الطواشية، وعند تغير خليفة أو سلطان يثبت ذلك في مكانه من السنة ثم يضعه في بداية السنة التي تليها لتأكيد الأمر، إلا أن هذا الأمر فعله في بداية الجزء الخامس من بداية سنة ٩٢٢هـ ./١٥١٦م ولم يكرره حتى نهاية الجزء رغم تغير الخليفة والسلطان وكثير من الأمراء.[٦٤]

ثم يتحدث في السنة على الشهور بحيث يبدأ بالمحرم وينتهي بذي الحجة، ويبدأ بالحوادث حسب حدوثها في أيام الشهر حسب التواريخ مثلا "وفي يوم الأحد سابعه"[٦٥] "وفي يوم السبت ثالث عشرة"[٦٦] و"يوم الاثنين سادس صفر"[٦٧] وهكذا.

ويتحدث داخل الشهر عن وفيات هذا الشهر حسب ورود الخبر بالوفاة أو تاريخ الوفاة لما يشاهده أو يصله باليوم نفسه، وهو منهج اختلف عن كثير من أصحاب الحوليات الذين يفردون للوفيات باباً خاصاً في آخر كل سنة، وبعضهم في آخر الشهر، إلا أن ابن إياس جعل من الوفيات أخباراً تاريخية قدمها في مكانها من الشهر واليوم.

والواضح أنه يدون أخباره يومياً بحيث يذكر عن موضوع معين أن الاشاعات فيه كذا. ثم ما يلبث بعد تبين الخبر الصحيح أن يذكره في اليوم الذي يصح به الخبر.[٦٨]

وكان ابن إياس على حد رأى محمد زيادة: "على جانب من القدرة في النقد، فلم يقنع بسرد الحوادث والوقائع والوفيات... بل وقف بين الحادثة والأخرى يشرح ويعقب... مع شيء من القسوة في الحكم".[٦٩]

أما عن منهجه في موارده، فشكلت الموارد في موضوع البحث لديه أربعة مستويات:

الأول: التقارير الرسمية الصادرة من المدن الشامية عن العثمانيين إلى مقر السلطنة في القاهرة والمطالعات والمراسيم.

ثانياً: روايات رجالات الدولة ممن كانوا في الأحداث، وخصوصا من خرج إلى مرج دابق صحبة السلطان الغوري.

---

(٦٣)ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٣.

(٦٤) المصدر نفسه، ج٥، ص٣-٦.

(٦٥) المصدر نفسه، ج٥، ص٧ .

(٦٦) المصدر نفسه، ج٥، ص٨.

(٦٧) المصدر نفسه، ج٥، ص١٧.

(٦٨) المصدر نفسه، ج٥، ص١٣١.

(٦٩) محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في مصر، ص٥٤.

ثالثاً: روايات الأفراد العاديين والإشاعات التي اشتهرت في القاهرة عن الأحداث، والأشعار التي قيلت في تلك المناسبات.

رابعاً: مشاهداته الشخصية

والواضح بعد تدقيق النظر في موارد ابن إياس أنه جعل للتقارير المكانة الأولى ورتب موارده من حيث الأهمية كما رتبناها، إلا أن مادته الأكبر بقيت هي مادة مشاهداته ومادة روايات الأشخاص العاديين والإشاعات، ويعود السبب في ذلك لقلة التقارير الرسمية أو لانقطاعها بسبب الحوادث مما أجبره على الاعتماد على موارد أخرى.

ولم يحاول ابن إياس على نحو واضح نقد موارده، فإذا تضاربت الروايات لا يحاول الترجيح بينها أو تبيان الأصوب منها، وهذا عوار كبير في منهجه، ولعل أبرز مثال على ذلك هو صفات السلطان سليم العثماني، فأورد له وصفان بهما اختلاف بين من غير أن يرجح وصفاً على الآخر أو يبين سبب الخلاف، وإن قدم الوصف الثاني بصيغة قيل.

ويتبين من ذلك أنَّ ابن إياس لم يقدم مشاهدات شخصية عن تلك الحوادث تتسم بالذَّاتية وإنمَّا اعتمد على تقارير ورسائل تبين الحوادث كما جرت، أو أقرب ما يكون إلى ما جرت، ومن هنا تأتي على نحو واضح قيمة كتابه، وأهميته في موضوع الصراع المملوكي العثماني، وخضوع بلاد الشام ومصر للسلطة العثمانية، وإجراءات العثمانيين المباشرة بها بعد خضوعها لهم.

The Sources of Ibn Iyas in his Book "Bada'I al-Zuhu'r" about the Ottoman-Mamluk Conflict (1517-1516AD/923-922 AH)

Shadia Hasan Al-Adwan*

ABSTRACT

This paper investigates the study of documenting history by studying the resources of Ibn Iya's, a contemporary historian, in his book Bada'i al-Zuhu'r about the Ottoman- Mamluk conflict. An attempt is made to identify and assess the value of the sources he relied on in studying this conflict and his methodology in choosing his sources. It appears that his sources are divided into four groups: 1. Official reports issued by the Mamluk state 2. Reports written by the people who were involved in the conflict 3. Oral narratives presented by the people involved in the conflict 4. The observation of Ibin I'aas of the events, the oral narratives circulated by the people in Cairo and the poems that depicted the events.

KEYWORDS: Documenting history, resources, Ibin Iyas, Mamelukes and Ottomans.

* Amman College, Al-Balqa Applied University.
Received on 23/11/2011 and accepted for publication on 10/5/2012.